الإنتلجنسيا العربية والقلم وما يسطرون

الخلـــــيج :السبت 31/05/2008,

محمد جلال عناية

يعتقد الكثيرون منا أن أهل الفكر هم ما بقي من عناصر القوة النقية في المجتمعات العربية، ونرى أن هذا الاعتقاد انعكاس لرغبة وشغف بأن يكون قد تبقى لدينا عناصر قوية ونقية في عالم العروبة، الذي لم ينج فيه شيء لم تختلط به الشوائب.

وإذا كنا نعتبر أهل الفكر من عناصر القوة في المجتمعات العربية، فإن هذه القوة من الصعب تقديرها بالمقاييس والموازين الوطنية كالمكان والمياه والنفط والعتاد العسكري أو الخبرات المهنية التي تقاس بمستوى العمل، أو القدرة على الإنتاج المادي التي تقاس بالنوع كماً وكيفاً.

حتى لا نتوه وراء التنظير في الفضاءات الخالية، كالنسق الدائر حالياً والمتمثل في الهدم والبناء شكلياً خارج إطار الواقع، بدوافع الخوف من عقوبة أو التماساً لمنفعة، نريد أن نغوص في عمق هذا الواقع بلا حرج، لأن أهل الفكر أصلاً منشغلون بهذا الواقع الذي يدور جدلهم حوله. فمنهم من يمجد الحاضر ويفضله عن الماضي القريب الأكثر تخلفاً، وعن المستقبل غير المأمون، ومنهم من يفضل الماضي ويدخل في صدام دموي مع عجلة الزمن التي لا تريد أن ترتد إلى الخلف طواعية، أما الذين يتطلعون إلى المستقبل فإنهم يفتقرون إلى وسيلة الوصول إليه، فيلجأون إلى وسائل بديلة بدافع الغضب كالغربة الفكرية في بلادهم، أو الاغتراب إلى بلاد أخرى تؤمن لهم اطلاق أفكارهم ثم محاولة تهريبها إلى بلادهم.

يظل المفكرون الذين يسوقون الحاضر كما هو، هم الفئة المحظوظة والطاغية بين جماعات أهل الفكر لأنهم يسبحون مع التيار فيطفون على السطح من دون عناء يذكر. وإن الحديث عن هؤلاء يوفر لنا الفرصة للتعامل مع مشاكل محسوسة وقائمة. وفي أفضل أحوالهم، يمكننا أن نصنف هؤلاء مهنياً بأنهم يفتقرون إلى القدرة على الإبداع، ومعزولون عن مواقع الريادة، ويتركز جهدهم على تثبيت السلطة القائمة واستمرارها، ليرتعوا في نعيمها.

إن أقسى الأزمات التي تواجه الانتلجنسيا العربية هي غياب حرية الفكر الذي تنعدم معه فرص التعبير عن الرأي. فإن صاحب الرأي، شاء أم أبى، يجد نفسه في مواجهة مع السلطة، مباشرة أو مداورة، على صفحات الصحيفة نفسها التي يلتمس بث رأيه عبرها إذا لم يكن هذا الرأي ضمن خطوط سياسية محددة. ومن المفارقات أن معظم الصحف تعلن في مكان بارز في صفحات الرأي أن المقالات المنشورة تعبر عن رأي كتّابها ولا تمثل سياسة الجريدة، إلا أن هذا الإعلان لا يعفي الكاتب من التقيد بسياسة الصحيفة إذا كان يريد لمقاله أن يرى النور، وهذا تفاهم مضمر بين طرفيه.

ومن الأزمات التي يواجهها صاحب الرأي هو ضيق الصدر الذي تصاب به السلطة عند معالجة قضية محلية، ولذلك فإنه يلجأ إلى نشر هذه المعالجة في صحف تصدر في بلد آخر. حتى أخبار الأحداث في دولة ما غالباً ما تنشر باقتضاب في صحف هذه الدولة، وتنشر في صحف بلد آخر بطريقة أكثر وضوحاً وتفصيلاً.

إذا كان المفكر أو صاحب الرأي يقع أحياناً ضحية التضييق عليه وإغلاق أبواب النشر في وجهه، فإن البلاء الأعم هو وقوع آلاف القراء ضحايا التجهيل والتضليل.

والآن أريد أن أعرّج على لون آخر من النشاط الفكري الذي له علاقة بالانتلجنسيا العربية، فقد اتصل بي ذات يوم أحد الصحافيين العرب وكان من معارفي الذين تربطني بهم مودة، وذكر لي أن أحد الأشخاص يريد أن يلتقي بي في حضوره، وعرف ذلك الشخص بأنه يعمل مع أحد المسؤولين في قطر عربي، وكان ذلك خلال

وجودي في القاهرة. فقابلتهما في الزمان والمكان المحددين، وقد اكتشفت أن الباعث على اللقاء هو كتاب "القوة اليهودية في أمريكا" (2001)، إذ أخبرني الرجل الذي التقيته أن المسؤول العربي يريد إقامة "Lobby" عربي في الولايات المتحدة الأمريكية لمواجهة جماعات الضغط اليهودية هناك، فصدمت لسذاجة الرجل، ولكنني تمالكت نفسي، وقدمت له نسخة من الكتاب الذي سبقت الإشارة إليه، وقلته له: "حاول أنت وصاحبك أن تتصفحا هذا الكتاب، واتصل بي بعد ذلك للحديث في هذا الأمر".

ولكنه لم يتصل بي، ووصل إلى علمي أن هذا الشخص شكل مجموعة من المفكرين، يلتقون به في اجتماعات، ربما موسمية، في عواصم عربية مختلفة، واتخذوا لمجموعتهم اسماً رناناً، ولكنها لا تنتج شيئاً يثير الاهتمام. وهناك في المجتمعات العربية جماعات متعددة من هذا القبيل، تضم أعضاء متقاعدين أو ممن نضب إنتاجهم الفكري، وتشكل نسخة مهلهلة لما يطلق عليه في البلاد المتقدمة (Think tank)، أما في مجتمعاتنا فتبقى جماعة للعلاقات العامة، وفي حقيقة الأمر من دون علاقات عامة.